و للروح ارتواء

تفريغ محاضرة

هل جزاء الإحسان إلا الإحسان

رواء الاثنين | د.هند القحطاني

١٦-٠٨-١٤٤٢ هـ

هل جزاء الإحسان إلا الإحسان؟

بسم الله الرحمن الرحيم

إنَّ الحمد لله نحمده ونستعينه ونستهديه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله -عز وجل-فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله أما بعد؛

كيف هو حالك في شعبان وقد مضى النصف منه؟ ولم يتبقَ سوى أقل من نصف الشهر لبلوغ الشهر الفضيل؟ وكيف هو حال قلبك مع الله -عز وجل-؟ كيف هي تلاوتك وكم عدد ختماتك؟

غالبًا ما يأخذنا الحماس في بداية شعبان في أول أسبوع منه أو في أول عشرة أيام، ثم ما يلبث أن ينتصف الشهر حتى ننسى ما قد بدأناه، وقبيل رمضان أيضًا تبدأ الناس تنشغل في تجهيزات أخرى تجهيزات دنيوية أكثر من أي شي آخر.

فالتحدي الذي أمامك الآن هو كيف تحافظ على استعداداتك طوال الوقت؟ وكيف تحافظ على قلبك لكي يكون مستعد على واجب الوقت الذي سيأتي؟ فأكثر الناس توفيقًا في رمضان، هم الذين استعدوا وجهزوا أنفسهم لهذا الشهر بالذات.

لذلك حديثنا اليوم عن نقطة مهمة تتضمن هذه الاستعدادات يمكن أن يتوارد إلى الذهن لمَ أفعل هذا كله منذ الآن؟ أقرأ من القرآن أكثر من وردي اليومي المعتاد، أو لماذا أكثر من الصيام؟ إذ نحن مقبلون على رمضان وهو شهر الصوم والعبادة سنصوم ونقرأ ونصلي فهذا يكفي، ونغفل أحيانًا عن قاعدة ربانية فيها بشارة لكل من يعمل الخير ولكل مَنْ يأثر ما عند الله -عز وجل- على ما عليه، وهذه البشارة قول الله -عزوجل-: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ (الرحمن:٦٠) فكل مَنْ أحسن وقام بأفضل ما عنده فالله-عز وجل- يجازيه بأفضل مما يتوقع وأفضل مما يتخيل.

<u>قواعد ربانية في معنى ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ من الكتاب والسنة:</u>

أولًا: السنة النبوية:

١- كَتَبَ مُعَاوِيَةُ إِلَى عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ أَنِ اكْتُبِي إِلَيَّ كِتَابًا تُوصِينِي فِيهِ، وَلَا تُكْثِرِي عَلَيَّ، فَكَتَبَتْ عَائِشَةُ إِلَى مُعَاوِيَةَ: سَلَامٌ عَلَيْكَ أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -يَقُولُ: مَنِ الْتَمَسَ رِضَاءَ اللهِ بِسَخَطِ النَّاسِ كَفَاهُ اللهُ مُؤْنَةَ النَّاسِ، وَمَنِ الْتَمَسَ رِضَا النَّاسِ بِسَخَطِ اللهِ وَكَلَهُ اللهُ إِلَى النَّاسِ" وَالسَّلَامُ عَلَيْكَ. [أخرجه الترمذي في سننه، وقال الألباني: صحيح لغيره]

هذه قاعدة من القواعد الربانية التي تدخل ضمن قاعدة (هل جزاء الإحسان إلا الإحسان) **فمَنْ أرضى الله -عز وجل- ولو سخط كل الناس عليه فيجازيه الله -عز وجل- بأن يرضى عليه ويرضي عليه هؤلاء الناس**

فيكفيه مؤونة هؤلاء الناس وبالمقابل أيضًا تبقى القاعدة موجودة ومَنْ أرضى الناس بسخط الله -عز وجل-أي أنه أسخط الله -عز وجل-لكي يرضى الناس عنه، فما هو جزاؤه؟ ما الذي يحدث؟ هؤلاء الناس الذين أرضيتهم بسخط الله -عز وجل- يسخطهم الله -عز وجل-عليك ويسخط هو سبحانه عليك.

إذاً مثل هذه القواعد حين تطبقها في حياتك فبإمكانك أن تقرر قراراتك ولن تكون مترددًا دائماً بين مَنْ أرضي من الناس أو إلى أين أسير؟

٢- عن أَبي كَبْشَةَ الْأَنْمَارِيِّ، أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَقُولُ: ثَلَاثَةٌ أُقْسِمُ عَلَيْهِنَّ، وَأُحَدِّثُكُمْ حَدِيثًا فَاحْفَظُوهُ قَالَ:" مَا نَقَصَ مَالُ عَبْدٍ مِنْ صَدَقَةٍ، وَلَا ظُلِمَ عَبْدٌ مَظْلَمَةً فَصَبَرَ عَلَيْهَا إِلَّا زَادَهُ اللهُ عِزًّا". وَلَا فَتَحَ عَبْدٌ بَابَ مَسْأَلَةٍ إِلَّا فَتَحَ اللهُ عَلَيْهِ بَابَ فَقْرٍ، أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا..." [أخرجه الترمذي في سننه، وقال: حديث حسن صحيح] ,

فأول الأصناف من باب هل جزاء الإحسان إلا الإحسان (**ما نقص مال عبد من صدقة**)، الواقع لو كان عندك مئة ريال ثم أخذت منها خمسين فسوف تنقص خمسين هذا الطبيعي ولكن الأمر مختلف في هذه القاعدة السماوية فمالك حين تتصدق به فإنه لا ينقص، لأن هذا قول الذي لا ينطق عن الهوى فهو حق تصدقه ولا تصدق مالك لأنه ما نقص مال من صدقة، فلو كان عندك مثلًا ألف وأخذت منها خمسمئة وتصدقت بها فأنت في هذه الحالة تعد الخمسمئة المتبقية التي عندك كأنها ألف ومن جرب عرف، فإن المال يتبارك يبارك الله -عز وجل-فيه وكأنه لا ينتهي وهذا مصداق معاملتك مع الله -عزوجل- فكما أحسنت أنت وآثرت ما عند الله -عز وجل- فالله -عز وجل- يعاملك بإحسانه.

عن عُمَر -رضي الله -عز وجل-عنه- يَقُولُ: قَالَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- : مَنْ لَبِسَ الْحَرِيرَ فِي الدُّنْيَا، لَمْ يَلْبَسْهُ فِي الْآخِرَةِ ...)[أخرجه البخاري في صحيحه]، وهذا السياق نفسه عن شارب الخمر: عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا-، أَنَّ رَسُولَ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: (مَنْ شَرِبَ الْخَمْرَ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ لَمْ يَتُبْ مِنْهَا، حُرِمَهَا فِي الْآخِرَةِ.) [أخرجه البخاري في صحيحه]

إن هذه قاعدة فقهية تنطبق على المعنى الوارد هنا: **من استعجل الشيء قبل أوانه عوقب بحرمانه**؛

أي الذي يتعجَّل المتعة قبل وقتها يعامل بضد قصده، فالقاعدة التي يدور حديثنا حولها ليست محصورة فقط في (هل جزاء الإحسان إلا الإحسان) بمعناها الظاهر فلو أرجعناها إلى مصدرها سنجد أن أصل هذه القاعدة هي القاعدة العامة (الجزاء من جنس العمل) أي أنك إن عملت خيراً تلقى خيراً وإن عملت شراً تلقى شراً، فالإنسان إذا تعجَّل الشيء قبل أوانه عوقب بحرمانه فإذا لم يمتنع عن شرب الخمر لأنه وجد كل الناس تستمع فيه وكل الناس تشربه والمجتمع كله يرتكب هذا الإثم ويحاجّ من هذا المنطلق ويجادل، لكن الأصل أنه لو أذنب كل الناس وفسد كل الناس طالما أنك تعرف الحق وتعرف أن هذا الأمر حرام فسيبقى حرام لن يتغير حكمه وأن مَنْ شربها في الدنيا حرمت عليه في الآخرة، فهذا الإنسان متع نفسه بشيء من الحرام فشرب الخمر في الدنيا فيحرمه الله -عز وجل- من خمر الآخرة أو رجل لبس الحرير في الدنيا فيحرمه الله -عز وجل- من لبسه في الآخرة فكيف ستكون الحسرة حينها؟

فإنك مجرد تدخل الجنة وتجد الآخرين يتنعمون في نعيم أبدي سرمدي لا يشبه نعيم الدنيا فلا خمر الآخرة يشبه خمر الدنيا المنتنة ذات الرائحة ولا حرير الآخرة يشبه حرير الدنيا فأنت تحرم نفسك من نعيم سرمدي من أجل نعيم ينتهي فكم سنعمر بالدنيا؟ خمسين ستين سنة، ثم ماذا؟ ما الذي ينتظرنا في الآخرة هي حياة أبدية سرمدية.

٣- عن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي، فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَإٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ بِشِبْرٍ تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا، وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً. [أخرجه البخاري في صحيحه]

لك أن تتخيل كل خطوة تخطوها إلى الله -عز وجل- كل إحسان تفعله لله -عز وجل- يقابل ذلك الإحسان أضعاف مضاعفة فمن أسماء الله -عز وجل- الحسنى (الشكور) حيث يجازي بالعمل القليل الجزاء الكثير فإنك إن تقدَّمت شبراً تقدَّم الله -عز وجل- إليك قبل ذلك الشبر بالذراع وإن تقدمت إليه ذراعًا يأتيك الله - عز وجل- باعًا هذه مسافة أعلى، إذ إنك تراود نفسك فخطواتك بطيئة مترددة لكنك في تقدم وإن كان هذا التقدم بطيء فالله -عز وجل- يأتيك هرولة يأتيك بخيراته بجزائه بنعيمه بالفتوح بنوع من التوفيق كل هذا يأتيك الله -عز وجل- بها،

والنبي -صلى الله عليه وسلم- أيضا يؤكّد هذا بحديث آخر: عن أَبِي وَاقِدٍ اللَّيْثِيِّ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بَيْنَمَا هُوَ جَالِسٌ فِي الْمَسْجِدِ وَالنَّاسُ مَعَهُ ، إِذْ أَقْبَلَ ثَلَاثَةُ نَفَرٍ ، فَأَقْبَلَ اثْنَانِ إِلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَذَهَبَ وَاحِدٌ ، قَالَ: فَوَقَفَا عَلَى رَسُولِ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ، فَأَمَّا أَحَدُهُمَا : فَرَأَى فُرْجَةً فِي الْحَلْقَةِ فَجَلَسَ فِيهَا ، وَأَمَّا الْآخَرُ : فَجَلَسَ خَلْفَهُمْ ، وَأَمَّا الثَّالِثُ : فَأَدْبَرَ ذَاهِبًا. فَلَمَّا فَرَغَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: أَلَا أُخْبِرُكُمْ عَنِ النَّفَرِ الثَّلَاثَةِ؟ أَمَّا أَحَدُهُمْ فَأَوَى إِلَى اللهِ فَآوَاهُ اللهُ، وَأَمَّا الْآخَرُ فَاسْتَحْيَا فَاسْتَحْيَا اللهُ مِنْهُ، وَأَمَّا الْآخَرُ فَأَعْرَضَ فَأَعْرَضَ اللهُ عَنْهُ. [أخرجه البخاري في صحيحه] فأول هؤلاء الثلاثة وجد فرجة في الحلقة فجلس وأما الآخر لم يجد مكان فاستحيا أن يطلب منهم أن يفسحوا له فجلس خلفهم وأما الثالث أدبر ذاهباً فكان جزاء كل واحد منهم من جنس فعله، تخيل الثلاثة كانوا رفقة قدموا للرسول -صلى الله عليه وسلم- مع بعض فأما الأول أواه الله -عز وجل- فكم له من فتوح الرحمات وأجور الحسنات التي نزلت عليه ويكفيه (قوموا مغفورًا لكم قد بدلت سيئاتكم حسنات) وأما الآخر الذي جلس بعيد أيضًا استحيى فاستحيى الله -عز وجل- منه فأعطاه من الأجور ما الله به عليم أما الأخير حرمه الأجر لأنه لم يحاول مجرد المحاولة أن يجلس معهم فأعرض فأعرض الله -عز وجل- عنه فحرم من تلك الخيرات.

٤- عَنْ أَبِي قَتَادَةَ، وَأَبِي الدَّهْمَاءِ قَالَا: أَتَيْنَا عَلَى رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ، فَقُلْنَا: هَلْ سَمِعْتَ مِنْ رَسُولِ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- شَيْئًا؟ قَالَ: نَعَمْ، سَمِعْتُهُ يَقُولُ: إِنَّكَ لَنْ تَدَعَ شَيْئًا لِلهِ عَزَّ وَجَلَّ إِلَّا بَدَّلَكَ اللهُ بِهِ مَا هُوَ خَيْرٌ لَكَ مِنْهُ. [أخرجه أحمد في مسنده، وقال الألباني: إسناده صحيح] **فهذه قاعدة ربانية معروفة: أن من ترك شيئا لله عوضه الله -عز وجل- خيراً منه**، فلفظة النبي -صلى الله عليه وسلم- في هذه الرواية تنص على أنك لن تدع شيئا لله نلاحظ النفي في الفعل (لن تدع) إلا أبدلك الله -عز وجل-به ما هو خير لك منه (أبدلك) وهذا الإثبات، فلو كنت تريد شيء وتتمنى حصوله واتضح لك أنه لا يرضي الله -عز وجل- فتركته ابتغاء مرضات الله -عز وجل- فسيبدلك الله -عز وجل- خيرًا منه ولا بد.

فحين تترك الحرام أو تترك شيء فيه شبهة حرام فأعظم جزاء تجازى به ألا تُشوى بالنار فهذا خير وكفاية لكن الله -عز وجل- يجازي إحسانك بإحسان من عنده وفضل وهو أكرم منك فالخطوة الصغيرة التي تفعلها

يثيبك الله -عز وجل- بأنواع من الفتوح والتوفيق والأجور ما لم تحلم به ولذلك يقول النبي -صلى الله عليه وسلم- أيضًا في تطبيق هذه القاعدة: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللهُ لَهُ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ. [أخرجه الترمذي في سننه، وقال: حديث حسن] "مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَبْتَغِي فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ اللهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضًى لِطَالِبِ الْعِلْمِ ...." [أخرجه الترمذي في سننه، وقال الألباني: صحيح] أي سهَّل الله -عز وجل- له به طريقًا إلى الجنة

وهذا أمر عظيم أن تأتي يوم القيامة وتجد لك طريق معبد وكأنه ممشى لك أنت فقط تمشي عليه إلى الجنة طريقًا أخرويًا وطريقًا دنيويًا فتجد بالدنيا أبواب من الخير تفتحت لك ما ظننت أن تفتح لك فتأتيك فرص للخير من حيث لا تحتسب يسهلها لك في الدنيا تمهيداً لتسهيلها في الآخرة فلك أن تتخيل ما الذي فعلته ليُفتح لك هذا الرزق والخير؟ فقد تعبت رجلك فقط في طريق تلتمس به علماً تلتمس كلمة تحيي فيك إيمانًا أو توقد قلبك وتشعل فيه فتيلة الإيمان فهذا الطريق من سلكه يلتمس فيه علمًا سهَّل الله -عز وجل- له طريقًا إلى الجنة وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضى لطالب العلم.

٥- أَنَّ عَبْدَ اللهِ بْنَ عُمَرَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا- أَخْبَرَهُ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يُسْلِمُهُ، وَمَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللهُ فِي حَاجَتِهِ، وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً فَرَّجَ اللهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرُبَاتِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ". [أخرجه البخاري في صحيحه]

فالأمر الذي فعلته ربما كان شيء بسيط جدًا بأن فرجت عن أحدٍ كربة في أمرٍ بسيطٍ لم تلقِ له بالًا ولكنه عند الذي فرجت عنه عظيم ولربما دعا الله -عز وجل- لك بأن يفرج عليك كما فرجت عنه هذا الأمر وجزاء هذا الأمر عظيم مخبأ عند الله -عز وجل- يوم القيامة يفرج الله -عز وجل- عنك كربة من كربات يوم القيامة، فقد تأتي في يوم القيامة وأنت ملجم من عرق بذنوب وسيئات قد فعلتها وقد دنت عليك الشمس وأنت تغرق في عرقك أصلًا ومن ثم تبدأ نسبة العرق تخف وتخف حتى يفرج عنك فتتسأل وقتها: يا رب بما هذا؟ فتُجاب: بتلك الفرجة التي فرجتها في يوم كذا عن فلان بن فلان.

وحين نتحدث عن قاعدة (هل جزاء الإحسان إلا الإحسان) لا يجب أن يكون فعلًا عظيمًا أو قيامًا لليل أو صيامًا للنهار **ربما بعمل بسيط أخلصت فيه النية نسيته أو استقللته فربما ينجيك يوم القيامة.**

6- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَعْلَمَ مَا لَهُ عِنْدَ اللهِ فَلْيَعْلَمْ مَا لِلهِ عِنْدَهُ. [أخرجه البزار في مسنده، وقال الألباني: حسن بشواهده]، فما الذي يشغلك طوال الوقت ما نصيب الله -عز وجل- من دائرة تفكيرك؟ منذ أن تصبح حتى تمسي؟ هل يشغلك كيف يرضى الله -عز وجل- عنك أو كيف تستعد للقائه أو كيف تجود عملك أو كيف تحسن فيه؟

فمن سرَّه أن يعلم ما له عند الله -عز وجل- فليعلم ما لله عنده لو كان الله -عز وجل- يشغل دائرة كبيرة من تفكيرك فاعلم أنك أنت عند الله -عز وجل- بمكان، قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يَقُولُ اللهُ تَعَالَى:" أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي،

وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي، فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَإٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ، ..." [أخرجه البخاري في صحيحه] والجزاء من جنس العمل.

٧- عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو يَبْلُغُ بِهِ النَّبِيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ، ارْحَمُوا أَهْلَ الْأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ. [أخرجه أبو داود في سننه، وقال الألباني: صحيح] هذا الحديث تذكره دائمًا في أي موقف ترحم فيه أي أحد أي شخص أو حتى بهيمة من بهائم الأنعام،

قَالَ رسول الله-صلى الله عليه وسلم-: ... فِي كُلِّ كَبِدٍ رَطْبَةٍ أَجْرٌ. [أخرجه البخاري في صحيحه] فالإنسان حين يرحم شيئًا فالله -عز وجل- يرحمه بتلك الرحمة، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ غُفِرَ لِامْرَأَةٍ مُومِسَةٍ مَرَّتْ بِكَلْبٍ عَلَى رَأْسِ رَكِيٍّ يَلْهَثُ قَالَ كَادَ يَقْتُلُهُ الْعَطَشُ فَنَزَعَتْ خُفَّهَا فَأَوْثَقَتْهُ بِخِمَارِهَا فَنَزَعَتْ لَهُ مِنَ الْمَاءِ فَغُفِرَ لَهَا بِذَلِكَ. [أخرجه البخاري في صحيحه]

فهذه المرأة البغي ذنبها عظيم ولكنها رحمت ذاك الكلب العطشان في حر الصحراء فملأت خفها فسقته فيه فنظر الله -عز وجل- إليها فغفر لها بهذا العمل البسيط فلا تحقر من المعروف شيء فربما أمر بسيط أخلصت فيه لله -عز وجل- يفوق أمورًا عظيمة فعلتها قد شابها شيء من الرياء يجعلها الله -عزو جل- هباءً منثورًا يوم القيامة

وفي هذا الصدد نذكر زبيدة -رحمها الله- زوجة هارون الرشيد وعين زبيدة تلك العين العظيمة التي كانت مشروع العمر لزبيدة وكانت مخصصة لسقيا الحجاج وهي من أعظم الآبار التي حفرت إلى يومنا هذا ومع ذلك لما رُئيت زبيدة في المنام قيل لها ما فعل الله -عز وجل- بك قالت: غفر الله -عز وجل- لي، قيل لها :بعين زبيدة؟ قالت: وما عين زبيدة! وإنما غفر الله -عز وجل- لي بركعات كنت أقومها في جوف الليل فلا تعلم ما الذي ينفعك عند الله -عز وجل-.

٨- عن النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ وَهُوَ عَلَى الْمِنْبَرِ: ارْحَمُوا تُرْحَمُوا، وَاغْفِرُوا يُغْفَرْ لَكُمْ، ... [أخرجه أحمد في مسنده، وقال الألباني: صحيح] قال الله -عز وجل- : ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾(النور:٢٢)

هذه الآية نزلت في أبي بكر -رضي الله عنه- عند لحظه مؤلمة من حياة النبي وأبي بكر -رضي الله عنه- هي حادثة الإفك ففي حديث حادثة الإفك الطويل جاء فيه: .... قول عائشة -رضي الله عنها- : فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى :{ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ } الْآيَاتِ فَلَمَّا أَنْزَلَ اللهُ هَذَا فِي بَرَاءَتِي، قَالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وَكَانَ يُنْفِقُ عَلَى مِسْطَحِ بْنِ أُثَاثَةَ لِقَرَابَتِهِ مِنْهُ : وَاللهِ لَا أُنْفِقُ عَلَى مِسْطَحٍ شَيْئًا أَبَدًا، بَعْدَ مَا قَالَ لِعَائِشَةَ فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى : { وَلا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ } إِلَى قَوْلِهِ { غَفُورٌ رَحِيمٌ } فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: بَلَى وَاللهِ إِنِّي لَأُحِبُّ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لِي ، فَرَجَعَ إِلَى مِسْطَحٍ الَّذِي كَانَ يُجْرِي عَلَيْهِ . [أخرجه البخاري في صحيحه]

فمن هؤلاء الذين تكلّموا على السيدة عائشة -رضي الله عنها- -وقد كان أغلبهم من المنافقين وقليل من الصحابة- منهم رجل اسمه مسطح من قرابة أبي بكر -رضي الله عنه- وهو من الفقراء الذين ينفق عليهم ويتعاهدهم طوال الوقت، وقد تكلّم وخاض مع الخائضين وقد غفر الله عنه وتاب عليه وعفى عنه، ولما نزلت براءة عائشة -رضي الله عنها- من فوق سبع سماوات: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ

هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ ﴾ (النور: ١١) حينها حلف أبو بكر -رضي الله عنه- ألا ينفق على مسطح فنزلت هذه الآيات فيه : ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(النور:٢٢)

يعفوا أي: يغفر ذنبه فيسامحه أبو بكر -رضي الله عنه- وليصفحوا من صفحة العنق أي لا تذكر هذا الذنب طيلة عمرك ولا تمن عليه بعفوك عنه وتنساه وكأنه لم يكن أصلًا وهذا مقام عالي جداً، قال الله -عز وجل- في الآية (أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ۗ) ويصفح عنكم (وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) فقال أبو بكر -رضي الله عنه-: **بلى نحب أن يغفر الله لنا** وأرجع نفقته لمسطح، فهذا من فضل الله حتى في كظمك للغيض يجازيك بأعظم مما فعلته.

يقول ابن القيم -رحمه الله- :(**وقد دلّ الكتاب والسنة في أكثر من مئة موضع على أن الجزاء من جنس العمل في الخير والشر قال الله تعالى:﴿جَزَاءً وِفَاقًا﴾(النبأ:٢٦)؛ أي كما تفعل يفعل بك الفرق أن الله -عز وجل- يأتيك بالخير أضعافًا مضاعفة وأما السيئة فمن كرم الله -عز وجل- ألا يجزيك بالسيئة إلا سيئة مثلها.**

ثانيًا: من القرآن الكريم:

١ - ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾(يوسف:٥٦)

قال ابن القيم -رحمه الله- :(**لما احتمل يوسف -عليه السلام- ضيق السجن وضيق المقام فيه شكر الله -عز وجل- له ذلك أن مكن له الأرض ومَنْ عليها فأصبح هو الآمر الناهي في كل البقع الذي يحكمها وهو الذي يقضي في الناس من يأكل ومن لا يأكل**) فتخيلوا احتماله في السجن كيف مكَّن له الأرض، هناك فرق كبير بين السجن وبين أن يمكَّن الله -عز وجل- له الأرض يتبوأ منها حيث يشاء.

٢- ﴿فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾(مريم:٤٩)

لما خاصم إبراهيم -عليه السلام- قومه وأرادوا أن يحرقوه فلم يستطيعوا وأنجاه الله -عز وجل- من كيدهم لم يعد له بقاء بينهم فهاجر إبراهيم -عليه السلام- إلى حيث لا يعرف وكان وحيدًا ليس معه أحد فكافأه الله -عز وجل- نظير هجرته هذه لما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله -عز وجل- وهب له إسحاق ويعقوب -عليهما السلام- وكلًّا جعلنا نبيًا، فالله -عزوجل- جعل سلالة الأنبياء من بعد إبراهيم- عليه السلام- منه فكل أنبياء بني إسرائيل من سلالة إسحاق ويعقوب -عليهما السلام- ونبينا -عليه الصلاة والسلام -من سلالة إسماعيل -عليه السلام- وكلهم من سلالة إبراهيم -عليه السلام- فهو لما اتخذ قرار اعتزالهم كان فتى في الخمسة عشر من عمره فكافأه الله -عز وجل-أن يكون لقبه أبا الأنبياء ويكون كل سلالة الأنبياء منه وكل أجور دعوتهم وتبليغهم رسالة الله وعبادة أممهم في ميزان حسناته .

٣- ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ (البقرة:٤٠)

قال العلماء: (**مَنْ أوفى بعهد الله -عز وجل- أوفى الله -عز وجل- بعهده له**)

فكما أنت توفي بشرع الله -عز وجل- ببقائك ثابت على عهدك لا تغيرك الدنيا ولا يغيرك الناس توفي بعهدك فيوفي الله -عز وجل-بعهده لك،

متى ذلك؟ متى يكون وفاء الله -عز وجل- بعهده؟ حينما تكون أحوج ما تكون له في يوم القيامة ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾(البقرة:٢٧٧) فالله -عز وجل- يوفيها لك،﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ (فصلت:٣٠) يوفيها الله -عز وجل- لك

وفي آية آخرى يقول الله تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾(آل عمران:١٣٣) ويقول الله تعالى كذلك: ﴿سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ﴾(الحديد: ٢١)

قال ابن كثير -رحمه الله-:(**فمَنْ سابق في الدنيا سبق في الآخرة)**

<u>حين لا يكون مشيك متردد في الدنيا أي لا تتقدم خطوة وترجع خطوات أي حالك يكون كأنك تسابق في المسابقة فكما تسابق هنا في الدنيا يكون نصيبك في الآخرة أن تكون من السابقين جزاء وفاقًا.</u>

٤- قال الله -عزوجل-:﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾(يونس:٢٦) لماذا (أَحسَنُوا الحُسنى وَزِيادَةٌ)؟

قال ابن رجب -رحمه الله- :"**لأن أهل الإحسان هم الذي عبدوا الله -عز وجل- كأنهم يرونه**"، ففي حديث جبريل -عليه السلام- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رضي الله عنه- قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بَارِزًا يَوْمًا لِلنَّاسِ، فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ فَقَالَ: .... قَالَ: مَا الْإِحْسَانُ؟ قَالَ: أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ. [أخرجه البخاري في صحيحه]

فهذا تعريف الإحسان أن يعبد الله كأنه يراه فإن لم يكن يراه فإن الله يراه، فالذي يعبد الله بهذا المفهوم يكون جزاؤه يوم القيامة أن ينظر إلى الله عيانًا.

(لِلَّذينَ أَحسَنُوا الحُسنى): الجنة (وَزِيادَةٌ): **الزيادة هي النظر إلى وجه الرب**، فقوبل جزاؤهم على مثل ما كانوا يفعلون في الدنيا.. فما من خطوة تخطوها في الحياة الدنيا وتظن أنها تضيع، بل الله -عزوجل- يخبئ لك كل حسنة من هذه الحسنات لأحوج ما تكون إليها يوم القيامة.

٥- يقول الله -عزوجل-: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾

لماذا (يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ)؟ لماذا لم يقل يوفّى المحبّون؟ يوفّى الخائفون؟ يوفّى أي نوع من أنواع العبادة؟ لماذا الصبر هو الخصلة الوحيدة التي جاءت أنها (يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ)؟

جاء في نظم الدرر: "<u>لأن هؤلاء إنما احتملوا الصبر، والصبر دائم مع النفس وهو معنى من المعاني الباطنة لا يطلع خلق على مقداره في قوته وضعفه وألمه وشدته</u>"، هناك صبر بسيط وسهل، وهناك صبر موجع يحتاج

منك جهد لتحتمل الموقف ويمر ثم تقابل الناس، فهذا الصبر يجازيك الله -عزوجل- فيه بغير حساب لأن مقدار احتماله لا يطّلع عليه أي أحد سوى الله -عزوجل- ولأن هذا المقدار يختلف في قوته وشدته بحسب الألم وبحسب الشخص، فهؤلاء يوفّيهم الله -عزوجل- أجورهم بغير حساب.

وقد قال الله عزوجل أيضًا في آية أخرى: ﴿إِنَّ رَحمَتَ اللَّـهِ قَريبٌ مِنَ المُحسِنينَ﴾(الأعراف:٥٦) فكما أحسنوا في الدنيا يكون إحسان الله لهم بأن يقرّب رحمته منهم، فأي إنسان يريد رحمة الله فلينتبه لهذه القاعدة: "**إن رحمة الله تقترب أو تبتعد منك بمقدار قربك أو بعدك**" اقتربت من الله فتقترب منك رحمته، ابتعدت عن الله ابتعدت عن رحمته، وهو مصداقٌ لقوله تعالى:﴿جَزَاءً وِفَاقًا﴾(النبأ:٢٦)

فقرب الرحمة وابتعادها تندرج تحت قواعد يسترشد فيها المرء في طريقه لله -عز وجل-، فلما يقول الله -عز وجل-: ﴿إِنَّ رَحمَتَ اللَّـهِ قَريبٌ مِنَ المُحسِنينَ﴾(الأعراف:٥٦) بمعنى أنك في إحسانك كلما أحسنت كلما اقتربت منك رحمة الله -عز وجل-.

وقد قال الله عز وجل: ﴿هَلْ جَزَاءُ الإحسان إلا الإحسان﴾ فمن أحسن معاملته مع الخالق وأحسن في ذلك، يحسن الله -عز وجل- في معاملته هو، فيغفر له ويعفو عن إساءته ويعظم له أجره على عمل قليل أعطاه.

٦- من المواضع الغريبة في تطبيق هذه القاعدة قال الله -عز وجل-: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّـهُ لَكُمْ﴾(المجادلة:١١)

ما هو الذي يفسح لك؟ هل في يوم تفكرت في معنى هذه الآية؟

تخيل أنك في مجلس ما وفعلت هذه الحركة البسيطة جدًا، المكان كان ضيق وأتى أحدهم وأزحت له رأيته ينظر يبحث عن مكان ليجلس فأشرت إليه وفسحت له فقط فينظر لها الله -عز وجل- من فوق سبع سماوات فيفسح لك أنت بهذا الفسح الذي فعلته، ولكن ما الذي يفسحه؟ قيل الفسح يشمل:

١- الفسح في الصدر فالصدر يصير فسيح، سمح فيه نوع من السكينة والرضا والسلام.

٢- يفسح له في رزقه فالرزق الضيق النكد والراتب الذي لا يكفي والبيت الذي لا يتسع، يفسح الله له فيها ويفسح في كل رزقك.

٣- يفسح الله له في قبرك، فحين يضيق القبر على الواحد وتختلف عليه أضلاعه ثم يجد هذا القبر يتسع جزاء لبعض أعماله التي كان يفعلها منها الفسح لذلك الواقف.

٤- يفسح له في الجنة، فحين يكون في الجنة في بيته أو قصره أيا كان فيفسح له في نعيم الجنة.

يا لفضل الله العظيم والجزاء الوفير اثنتين في الدنيا وواحدة في البرزخ والرابعة في الآخرة؟ كل ذلك بسبب خمسين سنتيمتر بعدتها! فسحت أنت في الدنيا ففسح الله -عز وجل- لك في صدرك ورزقك وقبرك وجنتك، فلما نقول ﴿هَلْ جَزَاءُ الإحسان إلا الإحسان﴾ فلا تبخل على نفسك بشيء من هذا الإحسان.

هذا كله في أهل الإحسان حينما يحسنون وكيف يقابلهم الله -عز وجل- في ذلك.

أما الناس المترددة التي لا همة لها في تغيير أي شيء من حياتها؟ والمتكبر الذي يتبع هواه فقط؟ والذي يريد أن يتمتع ويأخذ كل متع الدنيا فهؤلاء كيف تنطبق عليهم القاعدة!

٧- قال الله -عز وجل- عن فئة من الناس: ﴿فِي **قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا** ۖ﴾(البقرة:١٠) المرض من أين يأتي؟ يأتي حين تسمح له أن يتفشى فيك فلا تقوّي مناعتك ولا تزيد من قوة جسمك وتحمله بتقوية إيمانك فلم تتوقف عن النظر إلى الحرام والسماع إلى ما يغضب الله -عز وجل- لم تحمِ قلبك فسمحت لهذه الشكوك أن تدخل فيه، فتعكّر عليك صفو إيمانك وتعشعش في داخلك ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ۖ﴾

هل ينتهي الأمر إلى هنا؟ لا ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾(البقرة:١٠) هذه الآيات في أوائل سورة البقرة، لأنها قواعد كلية في كيف تقرأ الوحي؟ فحينما تكون من الذين آمنوا وتقرأ: ﴿الم * ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ﴾(البقرة:١،٢) (لَا رَيْبَ) أي لا شك فلما تسمح لتلك الشكوك أن تدخل في قلبك وتبدأ تلك الأمراض تكبر كيف يكون حالك؟ الجواب: (فَزَادَهُمُ اللَّـهُ مَرَضًا)

أما تلك الفئة التي تتحايل على شرع الله -عز وجل- فيقال له: هذا حكمه حرام، فيقول: لا ولكني قد سمعت أنه حلال ويعطيك ألف فتوى، ماذا قال الله -عز وجل- عنهم؟ وكيف عاملهم من جنس عملهم؟

قال الله -عز وجل- : ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾(البقرة:٦٥) فهذه الآية تحكي عن قصة قومٍ تحايلوا على شرع الله -عز وجل- وهم أصحاب السبت، فما الذي فعلوا وماذا كان جزاؤهم؟

إنَّ الله - عز وجل- حرم عليهم العمل يوم السبت فامتحنهم أن جعل الحيتان تأتي إلى الشاطئ في يوم السبت، واليهود لا يصبرون عن المال ولا يستطيعون أن يصبروا على شيء وليس بمقدورهم منع أنفسهم؟ فما الذي فعلوا؟ قالوا: لن نصيد يوم السبت، لكنهم وضعوا شباكهم ليلة السبت -يوم الجمعة- تحت البحر وحين أتت الحيتان صيدت! متى كان ذلك؟ يوم السبت! هم لم يصدوها لكن حين جاء يوم الأحد أسرعوا وفكوا الشباك وأخذوها، هل صادوا يوم السبت؟ لا، هم يخافون الله فلم يصيدوا يوم السبت.

تخيلوا لو كان هذا في زمننا كم شيخ حلل الفتوى لهم؟ وكم من أناس قالوا: يا جماعة لا تتشددوا ولا توسعوا ضيّق، دعوهم يتمتعون لا بأس فما قاموا به هو زرق ساقه الله إليهم! هؤلاء الذين اعتدوا لما تحايلوا على شرع الله بماذا عوقبوا؟ بصيحة؟ بزلزال؟ لا، كما تحايلوا وكما مسخوا شرع الله -عز وجل- لما أنزلوه في منازل غير منازله فكأنه شرع الله ولكنه ليس بشرعه، مسخهم الله -عز وجل- بأقرب كائن حيوان شبيه بالإنسان مسخهم إلى

قردة، فهُم قردة، كأنه إنسان ولكنه ليس بإنسان هو بهيمة وقرد وحيوان، ولذلك يخاف الإنسان حينما يتحايل على شرع الله -عز وجل- بماذا تكون عاقبته؟ فنحن نعلم أن في هذه الأمة مسخ وخسف وقذف،

عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ خَسْفٌ وَمَسْخٌ وَقَذْفٌ فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ: يَا رَسُولَ اللهِ، وَمَتَى ذَاكَ؟ قَالَ: إِذَا ظَهَرَتِ الْقَيْنَاتُ وَالْمَعَازِفُ، وَشُرِبَتِ الْخُمُورُ . [أخرجه الترمذي في سننه، وقال الألباني: صحيح] وهذا للذين يتكبرون الذين يقول لك: والله الدين هذا دين مهنة مَنْ لا مهنة له، يا جماعة أريد أن أعيش حياتي كيفما أردت، وأعلم أن هذا الطريق هو الطريق الصحيح لكن لا أريد أن أفعله وأشعر أن الذين يلتزمون بشرع الله أناس مستواهم قليل فلا يمكن أن أكون من هذه الطبقة، فهؤلاء الذين يتكبرون يقابلهم الله -عز وجل- بنقيض قصدهم وأول هؤلاء الذين قال: أنا؟ إبليس.

فإبليس قال: أنا أسجد له؟ أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين فماذا كتب الله -عز وجل- عليه؟ هو ترفّع، رفع خشمه على أمر الله، لم يرد أن يكون مع هذه الطبقة فلا يناسبه أصلًا أن يكون مع هؤلاء الناس ولا أن يذهب لذاك المسجد ولا أن يصلي كما لا تريد أن تتغطى وهكذا.

فلما فعل هذا قابله الله بعكس قصده ﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا﴾(الأعراف:١٣) فقد كان من أهل الجنة؟ فقيل له اهبط منها إلى الأسفل ﴿فَما يَكونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فيها فَاخرُج إِنَّكَ مِنَ الصّاغِرينَ﴾ (الأعراف:١٣) ملعونًا إلى يوم القيامة تدخل النار من أوسع أبوابها!

فتخيلوا أولئك المتكبرون والجبارون يحشرون يوم القيامة أمثال الذرّ يطؤهم الناس، هل تتخيلون يوم القيامة ملايين بل مليارات من البشر يحشرون في صعيد واحد من عهد آدم إلى قيام الساعة فيطؤون هؤلاء الجبارين والمتكبرين وقد كانوا في الدنيا لا يمشون إلا بموكب ووفد عن يمينهم ويسارهم ثم يصبحوا أمثال الذر كالنملة يطؤهم الناس، فتخيلوا كيف هو شعورهم يومها وهم ينظرون لكل الناس وهم يطؤونهم فيقابلهم الله -عز وجل- بنقيض قصدهم.

<u>هذا حال من يتكبر في الدنيا فما حال مَن يتكبر عن آيات الله وعن دين الله بالذات؟</u>

٨- قال الله -عز وجل-: ﴿سَأَصرِفُ عَن آياتِيَ الَّذينَ يَتَكَبَّرونَ فِي الأَرضِ بِغَيرِ الحَقِّ وَإِن يَرَوا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤمِنوا بِها﴾(الأعراف:١٤٦) فكل آية يرونها لم يؤمنوا بها فيرى الدليل فيقول: لم اقتنع به أريد دليلًا من القرآن؟ فيقال له: هذا دليل من القرآن، فيقول: لا أريد دليلًا من السنة؟ فيقال له: هذا من السنة، فيردُّ: لا لم اقتنع ويزيد في ضلاله وغيه، ﴿وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾(الأعراف:١٤٦) يرى سبيل الغيّ أنه هو سبيل الرشد ويرى سبيل الرشد أنه هو سبيل الغيّ، عينه انقلبت.

ألا ترونهم قد زاد عددهم هذه الأيام؟ أناس أعينهم مقلوبة يرون الأسود أبيض والأبيض أسود، يرون الحرام حلال

ويرون الحلال حرام، فينكرون الواجب كالصلاة وغيرها من العبادات الواجبة، ينكرون ذلك بطرح الأسئلة المشككة كقولهم: هات لي آية في القرآن تقول صلوا أو آية في القرآن تقول صلوا خمس مرات أو آية تبين عدد ركعات صلاة المغرب أو عدد ركعات الظهر؟

تخيل لما يأتيك أحدهم ويقول: أنا لا أؤمن إلا بما هو موجود في القرآن، فهذا يرى أسود أبيض لأنه ابتدع دينًا من رأسه وفي آخر الأمر لا يتبع إلا هواه.

٩- يقول الله -عز وجل-: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾(الأنفال:٢٤)

ابن القيم -رحمه الله- عنده تعليق مهم على هذه الآية، قال: "**الرجل إذا حضرت له الفرصة من الخير، فرصة القربة والطاعة فالحزم في انتهازها والمبادرة إليها، فالله يعاقب من فُتح له بابًا من الخير فلم ينتهزه بأن يحول بين قلبه وإرادته فلا يمكنه بعد ذلك من إرادته عقوبة له**".

فإذا فُتِح لك باب من الخير ولم تنتهز هذا الباب من الفرصة والخير فيعاقبك الله -عز وجل- بأن يحول بينك وبين هذا الباب فلا يتيسر لك دخوله، لأنه كان مفتوح وأمامك لكنك تمنّعت عليه ورفضته، والعودة إلى سابق عهدك تحتاج أعمال كبرى من توبة واستغفار، فهذا الحول بين المرء وقلبه من جنس ما عمله حينما أعرض.

وفي بداية الدرس ذكرنا الحديث الذي فيه "فأعرَض فأعرَض الله عنه" فكما أعرض هو أعرض الله عنه، ومن صور الإعراض أن يحول الله بينه وبين قلبه.

وأيضًا للناس التي تقول: لا أفعل هذا الأمر خشية الوقوع في الذنب! وحين يسألوا: كيف ذلك وهذا باب خير؟! تقول: لا، ربما فتح لي بابًا ثانيًا فأقع في ذنب لذا لا أريد أن أفعل هذا الخير، وهذا مصداق قوله -عز وجل-: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي ۚ﴾ (التوبة:٤٩) ما تكملة الآية؟

﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا ۗ﴾ (التوبة:٤٩) لم يردوا أن يجاهدوا مع الرسول -صلى الله عليه وسلم- فقالوا: يا رسول الله إنا نخاف أن نرى شيئًا ونفتن به فدعنا نقعد أفضل لنا، وهذه ليست نيتهم الصحيحة لأن مَنْ يصدق الله يصدقه، إنما كانت نيتهم الراحة ألا يبذلوا جهدًا! فيقول الله -عز وجل-:﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي ۚ أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا ۗ ﴾

قال أهل التفسير:" **وفيه تنبيه على أنه من عصى الله لغرض ما فإن الله تعالى يبطل غرضه**" عصت الله بكشف وجهها حتى تتزوج ذاك الأمير أو غيره أو ليرقيها المدير أو لأي غرض أخر فيقابلها الله بنقيض قصدها.

ونقيض القصد لا يتبين في الحال العاجل الذي يظهر للعيان، بل انتظر حتى نهاية القصة والله أحيانًا قد يستدرج الإنسان ويمهله ما يهمله، ولذلك من عصى الله -عز وجل- لأجل غرض عاقبه الله بنقيض قصده لإبطال ذلك الغرض، فليس من السهل أن تحتال على أمر الله -عز وجل-.

١٠- وانظر إلى قول الله -عز وجل- في هذه الآية: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾(الجاثية:٢٣)

ما الذي فعله هذا الشخص؟ جعل إلهه هواه، فلا يريد أن يسمع لله -عز وجل- ولا يريد أن يسمع الأمر ولا الواجب ولا شيء. يريد أن يتبع هواه!

فيقابله الله -عز وجل- بنقيض قصده فكما أنه اتبع هواه وجعل على عينه غشاوة فلم ير الحق فالله سبحانه يعاقبه بأن يختم على سمعه وقلبه ويجعل على بصره غشاوة، الغشاوة ليست الغطاء الغشاوة كأنه شي يغطيه كاملًا فكأنه ظَلّه، لأن الشيء الذي في قلبه من الشكوك، والذي في قلبه من اتباع الهوى، صعد إلى عينه فأصبحت لا ترى، تمامًا كما نقول: الذي يحب لا يرى مساوئ من يحبه،

ونقول: عين الرضا عن كل عيب كليلة، وفي المقابل لما يكره شخص مهما فعل أو قال من الكلام الطيب الموزون لا يراه شيء لأنه يكرهه فكل كلامه وكل أفعاله يراها كذب ونفاق وخداع فتختم عليه، لأن العين ترى بالذي يراه القلب ولذلك لما مرضت قلوبهم وغشيت قلوبهم ما غشاها من شرك الهوى غشيت على أبصارهم فختم الله على سمعه وعلى قلبه وجعل على بصره غشاوة، فمَنْ يهدي هذا الإنسان من بعد الله؟ أفلا تذكرون!

١١- ثم قال الله -عز وجل- في آية أخرى: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾(البقرة:٨١) أين القاعدة هنا؟ أين الجزاء من جنس العمل؟ ما الذي فعله في الدنيا؟

حوّط نفسه بالذنوب والخطايا ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ﴾ مثل ما فعل بنفسه في الدنيا يفعل به في الآخرة فتكون جهنم محيطة به من جميع الجوانب ﴿لهم مِن جَهَنَّمَ مِهادٌ وَمِن فَوقِهِم تغَواشٍ﴾(الأعراف:٤١) مهاد من تحته ومن فوقه غواش، فلما كان محاط بالذنب والمعصية متلطخ بها لم يمنع نفسه بشي من الحرام كذلك الله -عز وجل- يفعل به في الآخرة ﴿جَزَاءً وِفَاقًا﴾(النبأ:٢٦) كما لم يمنع نفسه في الدنيا لم تمنع عنه في الآخرة.

١٢- ثم يقول الله -عز وجل- في آية أخرى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ ۚ﴾ لماذا لا تفتّح لهم أبواب السماء؟ ولا أبواب الجنة؟ أين ﴿جَزَاءً وِفَاقًا﴾(النبأ:٢٦) أين الجزاء من جنس العمل؟، قال ابن القيم -رحمه الله: "**لما لم تفتح لهم أبواب السماء لأعمالهم وهم في الدنيا فلم تفتح لأرواحهم حينما ماتوا في الآخرة!**"

فطيلة حياتهم الدنيا لم يصعد لهم عمل صالح، حياتهم على أهوائهم على الذي يريدونه، لا كما يريد الله -عز وجل، فلما

لم يصعد لهم أعمال صالحات طوال الدنيا فلم يصعد بأرواحهم، فروح الكافر أو روح الفاجر لما كانت تصعد إلى السماء الدنيا فلا تفتّح له، ثم يرمى رمية فتدخل روحه في جسده، بينما أهل الإيمان والعمل الصالح لما كانت أبواب السماء مفتوحة لأعمالهم طوال الوقت في دنياهم فتحت لأرواحهم حينما وصلت إلى الجنة.

١٣- من المهم في هذا كله أن تعرف القاعدة الأخيرة والتي بها نختم؛ يقول الله -عز وجل-:﴿وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّـهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾(النساء:١١٩) فأنت إذا اتخذت الشيطان وليًا لك في حياتك، فإذا اتبعت الشيطان وقدمت قوله على ما أمرك الله -عز وجل-، فالله يعطيك هذه القاعدة حتى تستطيع تقرر في حياتك من يتخذ الشيطان ولي من دون الله فقد خسر خسرانًا مبينا!

وليست خسارة قليلة أو مؤقتة ليست مادة سقطت فيها أو وظيفة خسرتها أو منصب فقدته ليس هذا هو الخسران، لأن هذا لا شي في الدنيا! الوظيفة معوّضة الشهادة معوّضة وكل شي معوض في الدنيا. **لكن إذا خسرت الجنة من يعوضك؟ وإذا صرخت صرخة ألم في قبرك من يعوضك؟ وإذا اشتعلت عليك النار من يعوضك؟** لا أحد. ولذلك ﴿وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّـهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾(النساء:١١٩)

ابن القيم -رحمه الله- يعلّق على هذه القاعدة فيقول: "**والعبد كلما وسّع في أعمال البر وسّع له في الجنة**" كلما ضرب بسهم في أعمال البر في الدنيا كلما توسّع له هناك في الجنة، وكلما عمل خيرًا في الدنيا وغَرس له غُرس له هناك وبنى هُنا فيبنى له هُناك وأنشِئ له من عمله أنواع مما يتمتع به هناك،

ولذلك كل ما تقدر أنت تفعل من الخير -وقد ذكرنا في حديثنا عن الاستعداد لرمضان بأن تستعد بكل أعمال الخير في شعبان فلا تكتفي فقط في الصيام ولا تكتفي فقط بالختمات، بقدر ما استطعت أن يكون لك في كل يوم صعيد واسع من أعمال الخير فافعله فهذا التمهيد من الإحسان يفعل قبل رمضان - ويقول: "**من تنوّعت أعماله المرضية لله المحبوبة له في هذه الدار تنوعت له الأقسام التي يتلذذ بها في الجنة، وتكثّرت له بحسب ما يتكثر بها هنا**" تكثّر هنا فيتكاثر هناك نعيمك، تكثر من عمل الخير؟ فيتكثر هناك نعيمك الذي تلتذ به ولذلك جعل الله -عز وجل- لكل عمل من الأعمال ﴿جَزَاءً وِفَاقًا﴾(النبأ:٢٦)،

فالناس التي تترك الموسيقى ولا تسمعها فهؤلاء تحدث عَنْهم مُحَمَّدِ بْنِ الْمُنْكَدِرِ -رحمه الله- فقَالَ: "**إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ نَادَى مُنَادٍ: أَيْنَ الَّذِينَ كَانُوا يُنَزِّهُونَ أَنْفُسَهُمْ وَأَسْمَاعَهُمْ عَنْ مَجَالِسِ اللَّهْوِ، وَمَزَامِيرِ الشَّيْطَانِ، أَسْكِنُوهُمْ بَيَاضَ الْمِسْكِ، ثُمَّ تَقُولُ الْمَلَائِكَةُ أَسْمِعُوهُمْ تَمْجِيدِي وَتَحْمِيدِي**" ففي الجنة الآن يسمعون شيء لأن هؤلاء كانوا يمنعون أنفسهم من شيء كانوا يشتهونه، فتخيل أنت أي شي تفعله لله -عز وجل- يأتي الله بأجره من جنس الشي الذي فعلته أو تركته!

ولذلك تنوّعت لذّات أهل الجنة وتنوعت آلام أهل النار، فمن سمع حديثًا لقوم وهم له كارهون صب في أذنيه الآنك،

وهو الحديد المذاب والنحاس المذاب تخيل يدخل في أذنه حديد مذاب مصهور بدرجة حرارة عالية تخترق أذنه! لماذا؟ لأنه استمع لحديث قوم وهم كارهون له!

إذًا الإنسان يعاقب في المكان نفسه الذي ارتكب المعصية عصى بوجه يعاقب بوجهه، بأذنه يعاقب بأذنه، بعينه يعاقب بعينه؟ لسانه بلسانه يشرشر شدقه وهكذا..

فمَنْ عوّد لسانه على ذكر الله - عز وجل- صان لسانه عن اللغو والباطل، ومَنْ يبس لسانه عن ذكر الله -عز وجل- ترطب بكل باطل وفحش، فالذي يكثر من ذكر الله -عز وجل- يصبح لسانه رطب دائمًا بذكر الله، والذي لسانه يابس من ذكر الله تجده هو رطب بالعكس أي رطب باللغو والفاحشة، لأن الإنسان ما يسكت، نفسك إن لم تشغلها بالطاعة شغلتك بالمعصية.

فهذا الكلام كله وهذه القاعدة نأخذها لتمهد فكرة أن مَنْ أراد الاستعداد والفوز في أول ليلة من رمضان، في أول القوائم التي تخرج إلى السماء مَنْ أراد أن يوفَّق في شيء من عمل الخير في ذلك الشهر فقابل ذلك الإحسان بإحسان من الآن، وما استطعت من عمل الخير في ذلك الشهر فقابل ذلك الخير بإحسان من الآن، وما استطعت من الآن أن تغير في شيء من حياتك.. أن تخطي خطوات أقرب لله -عز وجل- فافعل ذلك، ولا يحول دونك ودون الله -عز وجل- أحد، واعلم دائمًا وخذها على يقين أن الله لا يعامل الإحسان إلا بإحسان، وأن أي شي تفعله خير أو شر فإن الله يعاقبه بمثله، فمن كرم الله - عز وجل- أنه يضاعف الحسنة ولا يجزي بالسيئة إلا مثلها.

أسأل الله أن يغفر لي ولكم وأن يرحمنا برحمته وأن يعفو عنا بعفوه وأن يبلغنا رمضان ويبلغنا صيامه وقيامه وأن يجعلنا من أول عتقائه من النار، والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

تنويه: مادة المحاضرة جمعت من مصادر عدة وجميع المحاضرات في المدونة ليست كتابة حرفية لما ورد في المحاضرة؛ إنما تمت إعادة صياغتها لتُناسب القرّاء وبما لا يُخلُّ بروح المحاضرة ومعانيها